المؤتمر الدولي للموارد المائية والبيئة الجافة (2004م)

الغطاء النباتي : ذَهَبُ بلادنا الأخضر

عبدالعزيز بن حامد أبوزنادة

الهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية وإنمائها – الرياض

الملخـــص

يسعى العالم أجمع للمحافظة على الأصول الوراثية الفطرية من نبات وحيوان وكائنات دقيقة حتى وإن لم تكن مهددة. ومن أجل المحافظة على الأصول الوراثية في المملكة ينبغي جمع المعرفة التقليدية المتوارثـــة وتوثيقها.

تقع معظم أراضي المملكة ضمن تعريف الصحراء، ونباتاتها جفافية بطبعها. ويتطلب مواجهـــة تدهور الغطاء النباتي في بلادنا إجراء دراسات مكثفة للمواقع المتضررة والعمل على تنفيذ برامج إصلاح الغطاء النباتي في مناطق مختارة.

إن العناصر الخشبية في الحزام الجاف محدودة، أشهرها ما تضمه أراضي الغابات الشوكية Thorn woodlands التي تضررت بالفعل كثيراً لأسباب عديدة منها الاحتطاب والرعي الجائرين والتغول العمراني، وتدمير البيئات الطبيعية.

ومعظم الغطاء النباتي في المملكة تطوله أنشطة الرعي مع عدم توفر أدلة قاطعة تؤكد حدوث نقص في معدلات الأمطار، مما يثبت أن ما أصاب الغطاء النباتي من تدهور هو بسبب أنشطة الإنسان المدمرة.

ورغم وجود عوامل أخرى عامة خارجة عن قدرة الإنسان إلا أن للعديد من أنشطته تأثيراً تحفيزياً دافعاً لهـــا مثال ذلك ظاهرة الاحترار الكوني، وإتلاف طبقة الأوزون، وتواصل موجات الجفـــاف، وتـــصحر الأرض، وفقدان الكثير من مكونات التنوع الأحيائي وانحسار موارد المياه. وكلها أمور تشغل عالم اليوم وتحتـــاج إلى التعامل معها بحكمة وجدية.

وليس من شك أن في حماية المرء للبيئة المحيطة به في حد ذاتها حماية مباشرة له، لذلك ينبغـــي أن لا تتم بشكل عشوائي، بل يجب أن تكون مدروسة ، مبرمجة ، مراقبة. ويرتبط نجاح إصلاح المراعـــي بهطـــول الأمطار التي هي بدورها مضطربة شحيحة بلا انتظام، في الزمان والمكان.

وأهم وظيفة لمراعينا أن تظل غطاءً نباتياً يحفظ التربة ويمنع عنها التصحر ويكفـــل حـــصاد الميـــاه الهاطلة وشحن الخزانات الجوفية الطبيعية.

والغابات في المناطق الصحراوية ليست بالمفهوم الدقيق للغابات، فهي غابات حرجية محلية تألف مناخ المنطقة وتتأقلم معه. وخلال العقدين الماضيين خاصة عملت الفؤوس والمناشير في جذوع أشجارها المحدودة قطعاً وحرقاً وتفحيماً. كما أصاب أكثر أنماطها تميزاً في جنوب وغرب المملكة الجفاف القاتل في ظاهرة تعرف بالموت القمي الذي انتشر في غابات العرعر.

يتطلب ضبط الرعي وضع خطط وبرامج واستراتيجيات تنظمه من حيث المكان والزمان والحمولة الرعوية والتفكير في إنشاء مشاريع خارج نطاق المراعي للتسمين وتنمية الثروة الحيوانية في مجال إنتاج الألبان واللحوم والبيض وغيره دون الإضرار بالغطاء النباتي الطبيعي.

كما يقترح التفكير في إنشاء مراعٍ تجارية Ranch-lands وهي مساحات تملكها الدولة غالباً وتقوم بتأجيرها على أساس دوري يضمن لها فترتا التجديد والنمو الكافيتين ضمن بنود اتفاق واضحة ترعى المصالح العامة.

ويمكن تطوير هذا النمط المنضبط للرعي بأن تنشأ بجواره أو قريباً منه صناعات متعلقة به مما يساعد على الاستقرار النسبي لجانب من المجتمع الريفي، ويجعله على صلة بالمجتمع الريفي المتنقل ويشكل حلقة وصل رابطة بين الريف والحضر.

المقدمة

المملكة العربية السعودية إحدى دول حزام المناطق القاحلة الذي يدور حول خصر الكرة الأرضية, ومعظم أراضيها تقع ضمن تعريف الصحراء. والصحراء عالم بذاته .. ثري بتنوعه الأحيائي الخاص وأنماط بيئاته الفريدة.. وأسلوب تأقلم كائناته الفطرية معه نباتات الصحراء جفافية بطبعها, تسقط أوراقها صيفا لتقليص السطح الناتج, ومجموعها الجذري في معظمه عميق ضارب في الأرض, وأحيانا يصاحبه مجموع جذري ضحل تنتشر شبكته قريبا من سطح التربة لالتقاط كل بلل يصيبها, كما أن هذا المجموع الجذري يمتص المياه المالحة, ومن خاصية الأملاح إذا دخلت الخلايا الحية أن ترفع من تركيز العصارة الخلوية مما يؤمن حفظ الماء فيها ويؤمن استمرارية التفاعلات الكيمياوية الحيوية.

الغطاء النباتي في بلادنا يميز بيئتنا بكل شراسة أجوائها وقسوة الحياة الطبيعية فوقها، وما عاناه معه السلف عبر التاريخ. وإنسان اليوم منعم مرفه مستمتع بكل ما أفرزته الحضارة الحديثة ففقد الإحساس بالطبيعة وما صار إليه حالها.

ونحمد الله أننا لا نزال ننعم بوفرة بيئات حيوية عذراء لذلك أسرعنا للمحافظة عليها وحمايتها مكرهين لا أبطال قبل فوات الأوان، نسجنا منظومة مناطق محمية أرضية وبحرية تجاوز عددها المائة موقع، وخلال ثمانية عشر عاماً أمكننا إعلان خمسة عشر منها، والزمن ذو حدين، ويسعدنا أن 45% من النباتات البرية عندنا قد تضمنتها (9) من هذه المحميات.

لا نستطيع أن نحمي كل التضاريس وبيئاتها الحيوية المتنوعة التي غطت الجبال والمرتفعات، والرمال المنبسطة الداخلية والساحلية، والروضات والسباخ والسهول، والصحارى الحصبائية والحماد، والحرَّات والهضاب، والوديان والمسائل والمانحروف.

لقد تدهور الغطاء النباتي في بلادنا .. ولابد من علاج. والجواب هو بالامتناع عن فعل كل ما يضر به. والسؤال الآن كيف؟

يتطلب الأمر دراسة الموقع المتضرر ومقارنته بالموقع السليم على امتداد انتشار ذلك النمط من الغطاء النباتي, لمعرفة العناصر المفقودة, أو تلك التي انحسرت أعدادها أو تقلص مقدار مجتمعها أو جماعاتها أو عشائرها، وهذا ليس بالمشروع السهل, حيث يتطلب الأمر إجراء مسوحات دقيقة على مدار العام جوا وبرا. ويصاحب هذا المسح تحليل دقيق للكشف عن أسباب التدهور المحتملة. وقد تتطلب معالجة فورية, وإجراءات تنفيذية صارمة.

ومن المستحيل **إعداد** كل أفراد النوع المفقود المطلوب لسد الفراغ الملاحظ, كما أنه من المستحيل بالدرجة ذاتها إنتاج الأعداد الكافية من أفراد النوع البديل المحلي.

لذلك لا بد من التفكير في إنشاء مشاتل مناسبة في مناطق مختارة داخل نطاق الغطاء النباتي المراد تأهيله, وهذا يعني تجنيد الكفاءات المتخصصة والكوادر الفنية المؤهلة ووضع هيكلية لتخطيط هادف منطقي.
ما النبات المناسب للغرس في الموقع المتضرر؟

بالطبع هو ذلك النبات الذي تضرر أو اختفى أو انحسرت كثافته, وهو أيضا ذلك النبات البديل المحلي المناسب الذي يمكن أن يملأ الفراغ.

وفي الحالتين فالأمر صعب, ويحتاج إلى تعاون فرق كاملة متخصصة تدرس كيفية جمع البذور بالأسلوب السليم في الوقت المناسب, وتدرس ظاهرة الكمون لهذه البذور وكيفية التغلب عليها, وتدرس الظروف البيئية السائدة ومحاكاتها مختبريا, وتدرس احتمالات التهجين الطبيعي وسلامة نمو النادرات, وتدرس أنسب الأوقات لنقل البادرات ورعايتها إلى المكان المراد إثراؤها به, ومراقبتها ومتابعة تطورها.

جمع البذور والثمار المحلية

تهدف عمليات جمع الثمار والبذور إلى شيئين : أولهما: المحافظة المستقبلية على الأصول الوراثية ممثلة في البذور بعد معالجتها بأسلوب معين يؤمن بإذن الله بقاءها سليمة لمستقبل الأيام. وهذا هو النشاط العالمي السائد حاليا, وتهدف عملية الجمع ثانيا: إلى الحصول على أعداد وافرة من البادرات لأغراض البحث والغرس والإكثار.

والعناصر الخشبية في الحزام الجاف القاحل محدودة, وفي المملكة العربية السعودية هي قليلة جدا تتمثل في أنواع شجرية وأنواع شجيرية وتحت شجيرية, أشهرها ما تضمه أراضي الغابات الشوكية Thorn woodlands.التي بالفعل تضررت كثيرا لأسباب عديدة منها الاحتطاب والرعي والتغول العمراني, وتدمير البيئات. والنباتات, كما هو حال البشر أيضا, تعيش في عشائر وجماعات ومجتمعات على الطبيعة في توازن تام مع كل عناصر البيئة. متفاعلة مع كل العوامل المحيطة بها ومتأقلمة مع التغلبات.

وللأسف فقد تضررت هذه العشائر والجماعات والمجتمعات بالسلوكيات السلبية للبشر. على رأس هذه التكوينات نباتات تسودها, يشتق مسماها منها, فنباتات النزع (Poa) والروثة (Salsola) والرمث (Haloxylon)والعرعر (Juniperus) والطلح (Acacia) والثمام (Panicum) والآراك (Salvadora) والشبرق (Indigofera) والعرفج (Rhanterium) والسدر (Ziziphus) والعكرش (Aeluropus) والشنان (Seidlitzia) والشعران (Anabasis) والهرم (Zygophyllum) والقطف (Atriplex) والسويده (Suaeda).الخ.ليست مجرد أفراد يمكن إغفالها وتجاهلها ولكنها رموز لمجتمعات متناسقة متآلفة متفاعلة. وكلها قد تعرضت ومازالت تتعرض لصورة من صور الإتلاف والتدمير, سواء أكان هذا الإضرار مقصودا أم عن غير قصد. وأدى هذا الخلل إلى عدم الاتزان في تكوين هذه المجتمعات, وإلى اضطراب الغطاء النباتي الذي أقل فوائده حتى ولو كان ساما أو غير مستساغ أو عديم المنفعة المباشرة, إنه يحمي التربة من الانجراف ومن أشعة الشمس الحارقة حتى ولو كان جافا هشيما تذروه الرياح.

ومعظم أو جل الأمثلة الواردة أعلاه هي لغطاء نباتي على اليابسة. وهناك البيئة المائية عذبها ومالحها وهي بعيدة عنا من حيث إهمالنا لها بصفة عامة وتركيزنا على بيئتنا اليابسة. والغطاء النباتي المائي له دور لا يمكن تثمينه وإعطاؤه حقه من الاستحقاق, تعرض إلى الإتلاف, فالأراضي الرطبة عذبة المياه قد جفت ومياهها غارت بفعل فاعل, وبفعل عوامل طبيعية.

وهذا أمر مؤسف يصعب تصحيحه, إذ أن قنوات التغذية ليست في يد الإنسان, خاصة الأمطار, ولعلنا ندرك فداحة الخسارة في تأمل الأفلاج وعيون الخرج والإحساء وعين زبيدة ولاغونات وادي الحائر, وبموت هذه الأراضي الرطبة انطفأ جانب مشرق من الغطاء النباتي. والحديث يطول, والزمن يمضي وأطراف الغطاء النباتي تتآكل وتمحي في صمت رهيب.

معظم الغطاء النباتي في المملكة تطاله مناشط الرعي ويعتقد العلماء أنه لا تتوافر أدلة قاطعة تشير إلى حدوث نقص في معدلات الأمطار, وأن كل ما أصاب الغطاء النباتي هو بسبب مناشط الإنسان المدمرة. ويرى دراز (د ت) أن ما حدث من تدهور قد يعود إلى إهمال الموارد الطبيعية وعدم صيانتها.

ونباتات المراعي جانب مهم من الغطاء النباتي, وهناك فصائل زهرية هامة تكون مجتمعات بارزة في الغطاء النباتي, منها الفصيلة النجيلية Gramineae والفصيلة المركبة Compositae والفصيلة القرنية Leguminosaeوالفصيلة الصليبية Cruciferae هي في الوقت ذاته تشتمل على العديد من أنواع النباتات المستساغة.

هناك عوامل عامة خارجة عن قدرة الإنسان, برغم أنه قد يكون للعديد من مناشطه تحفيزا ودفعا لها. مثال ذلك ظاهرة الاحترار الكوني, وإتلاف طبقة الأوزون, وتواصل موجات الجفاف, وتصحر الأرض, وفقدان الكثير من مكونات التنوع الأحيائي وانحسار موارد المياه. وكلها أمور تشغل عالم اليوم.

فالمعروف بداهة أن حماية المرء لما حوله هي حماية مباشرة له, وكل عمليات تأهيل الغطاء النباتي ليست أمورا عشوائية سائبة, ولكنها مدروسة مبرمجة مراقبة. في المكان والزمان, وهنا كانت أهمية الحمى بكل أنماطه المختلفة, منه ما يتطلب إنشاء مناطق محمية مسيجة مغلقة في وجه كل صور الإفساد.

ومنه ما هو مكشوف في توازن يتأرجح بين الحَرِجْ والمعقول والمقبول. وما بين الطرفين مراحل وسط. والتنمية بكل طيفها تتغلغل فوق كل مكان فوق كوكب الأرض يابسا كان أم رطبا, حتى المواقع التي صعب على إنسان الماضي اقتحامها, أمكن لإنسان اليوم الوصول إليها, بل وتدميرها تحت ستار التنمية والتطوير, كم من موائل بيئية حية قد احتضرت, فالعديد من الأودية قد سرقت تربته لإنتاج مواد البناء. والعديد من الأودية صار مقبرة لما تلفظه عمليات البناء من بقايا ركام ونفايات. والحديث يطول وليس هذا مكانه.

استعمالات الأراضي في بلادنـــا

هذا يصب مباشرة في قضية الغطاء النباتي وما واجهه ويواجهه من أوجاع. وقد جاء في احصائيات الفاو لعام 1984م أي قبل عامين من ولادة الهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية وإنمائها ما يلي:

المساحة الكلية للمملكة	214969	ألف هكتار
زراعة حولية	001060	ألف هكتار
زراعة دائمة	000075	ألف هكتار
مراعي	85000	ألف هكتار
غابات	001601	ألف هكتار
بحيرات	0	
أراضي أخرى	127233	ألف هكتار

كان هذا وقد بلغت الطفرة بوابة انطلاقتها.

فكيف بلغ حالها عند الذروة؟

وكيف صار في يومنا هذا؟

مراعي المملكة

تقدر بحوالي 85 مليون هكتار خلال الثمانينيات كما ورد أعلاه. ومن المعروف أن مراعينا غير دائمة ومرتبطة بهطول الأمطار, وهذه بدورها مضطربة شحيحة بلا انتظام. بل يمكن القول عنها أنها غير اقتصادية. وأهم وظيفة لها أن تشكل غطاءً نباتيا يحفظ التربة. ولكنا اخترقنا خصوصيتها واستنزفناها, وفسح المجالُ واسعا للتصحر. وتواصل الرعي الجائر.

وغاباتنا ليست بالمفهوم العالمي للغابات, كانت في حدود المليون ونصف المليون هكتار كما ورد أعلاه. قبل عقدين من الزمان, وهي على أية حال غابات حرجية بلا مردود اقتصادي صناعي, محلية تألف مناخ بلادنا وتتأقلم معه, وخلال العقدين الماضيين خاصة عملت الفؤوس والمناشير في جذوع هذه الأشجار قطعا وحرقا وتفحيما. كما أصاب أميز أنماطها الجفاف القاتل وأعني الموت القمي الذي انتشر في غابات العرعر في جنوب غرب المملكة.

والسؤال الهام الآن, ما حال الأراضي التي لم تتضمن في أية استعمالات كما ورد في إحصائية عـــام 1984م والتي تقدر بنصف مساحة المملكة؟

المنطق يقول أن غطاءها النباتي لا يزال سليما حكماً بغياب النشاط البشري.

حسنا, هذا قول مقبول:

ولكن ما نوعية ترب هذه المساحة الضخمة؟

وكيف تأثرت بالتنمية الطموحة التي انجزتها المملكة خلال العقود الأخيرة؟

تصعب الإجابة, لغياب الوثائق.

ومن البديهي أن يكون الغطاء النباتي الشحيح أصلا قد تضرر.

وما الوثائق الغائبة؟

لقد قصَّرنا في تراثنا الأخضر وانشغلنا ببهرجة الحضارة وأضوائها البراقة عن الأصول التراثية في كل المجالات.

وقد حظيت جزيرة العرب قبل تقسيمها السياسي الحديث بدراسات دقيقة, منها الغطاء النبـــاتي ومكوِّناتـــه.

ليس حبا في جزيرة العرب, ولكن لإسقاط الضوء على الهند, التي كانت مستعمرة بريطانية.

وجاء الرحالة الغربيون من كل صوب وحدب لدراسة جزيرة العرب حينها.

ثم تفككت جزيرة العرب سياسيا إلى دول.

و تقطعت أوصال الغطاء النباتي.

الفلورة السعودية:

ظهرت الطبعة الأولى عام1974 م بمجهود الأستاذ الدكتور أحمد محمد مجاهد) يرحمه الله (وسجل ما أمكنه من عناصر الغطاء النباتي حينها. واتبع ذلك بالطبعة الثانية1987 م ثم الثالثة199-1989 .م ثم ظهر مؤلف ماندافيل 199.م عن المنطقة الشرقية ثم جاءت موسوعة شيلا كولنت1999-1985 م الخاصة بجنوب غرب المملكـــة.

وحسنا فعل هؤلاء.

ونتطلع إلى المزيد والسرعة في الإنجاز والتوثيق ,فعجلة التنمية تسحق الغطاء النباتي وتعمل على مدار الساعة.

والوقت كالسيف ،، والله المستعان.

ولوزارة الزراعة والمياه إنجازات توثيقية في مجال الغطاء النباتي خاصة ما صدر قبل أعوام قليلة.

وما نتطلع إليه هو تحسس التغيير الذي حدث والتنبؤ ما أمكن بالتغيير المتوقع ,والمحافظة على التنوع الأحيـــائي بكل الوسائل.

الأنواع الدخيلة

تجب الإشارة هنا إلى ضرورة تحاشي إدخال أنواع نباتية غريبة ,وهو موضوع حظي بعرض واســـع محليـــا ,في حالات بعينها ,منها المسكيت ,والأرجموني. وما نرغب في توصيله أن مجرد نقل نبات من منطقة مـــا داخـــل المملكة ,إلى منطقة أخرى أيضا داخل المنطقة ,هو نمط من الإدخال غير المسئول ويجب تحاشيه ,فإذا كان هذا هو المنطق محليا ,فإن استيراد الأنواع الأجنبية يكون سلوكا متطرفا ضارا.

والنباتات المستوردة الدخيلة لأي هدف تم إدخالها, شديدة الخطر. شديدة المنافسة. شديدة الشراهة للماء والمحلول الأرضي, وتتحول مع الزمن إلى استيطان شرس وهي عادة غير مستساغة, وليس لها أعداء في مقرها الجديد, وسلسلة المآخذ عليها طويلة. حاول البعض إثراء الغطاء النباتي بإدخال أنواع من بيئة مماثلة, و لم يصدر بعد ما توصلت إليه نتائج هذا الإدخال من داخل مواقع التجارب عليها ومهما كانت النتائج فهناك صفات كامنة في هذه الأنواع المدخلة. ربما تتكشف مستقبلا ويصعب احتمالها وحل مشاكلها ولربما أضرت بالبيئة الأرضية وأيضا بالبيئة المائية والأنواع المحلية.

لا بد من إجراء مسوحات متأنية لمعرفة وتسجيل كل الأنواع الدخيلة التي هربت من الأسر (حدائق, مزارع, بساتين ..الخ) إلى الغطاء النباتي الطبيعي. والنظر في أمرها ودراسة ما حدث منذ تغلغلها إلى البرية.

فهل الغطاء النباتي الذي يزين صفحه أرض بلادنا أصيل وطبيعي؟!

يقفز السؤال الهام, ماذا نعني بطبيعي أصيل؟

والإجابة من السهل الممتنع:

الغطاء النباتي أيا كان نتاج الظروف البيئية وعناصرها وتوازنها. والغطاء النباتي فوق قشرة بلادنا خلال العصور القديمة ليس هو ما نألفه اليوم..كنا قلة ..ونحن اليوم كَثْرة كنا نعنى بالظواهر الطبيعية .. واليوم انصرفنا عنها.

كنا نرصد مواقع أقدامنا.. واليوم نركض بلا حذر.

كنا نعيش عند حدود الحاجة واليوم احترقنا جدران الإسراف إلى الاستتراف.

كنا نرعى اليوم الأبيض لليوم الأسود وصرنا نعيش اللحظة الآنية.

كل هذه القفزات والغطاء النباتي في مركزها.

مبدأ العرض والطلب

مبدأ اقتصادي هام, أن يتوازن الطلب علي شئ ما, مع توافر ذلك الشئ دون استتراف له, مع فسح فرص التجديد والوفرة له. وهو مبدأ إسلامي عظيم. "وكلوا واشربوا ولا تسرفوا", والغطاء النباتي مورد طبيعي متجدد بطبعه, والطلب عليه شأن طبيعي أيضا "كلوا وارعوا أنعامكم". وقال تعالى: "والأرض بعد ذلك دحاها, أخرج منها ماءها ومرعاها, والجبال أرساها, متاعا لكم ولأنعامكم."

عصر الطفرة النفطية

جاء النفط بالخير.. وتسارعت خطى العمار والتعمير. وتبدلت تدريجيا سلوكيات سبل كسب العيش في حياتنا. الزراعة التقليدية، انهارت وجاءت تقنيات الزراعة الحديثة وللإعداد لكليهما كان الغطاء النباتي الأصيل الفريسة السهلة.

أساليب حصاد المياه الفطرية انحسرت, وجاءت أساليب تجفيف أعماق الأرض قبل سطحها.

أساليب زراعة المحاصيل المحلية المتأقلمة مع البيئة اختفت وجاءت محلها تقنيات البذور المحسنة وما يرافقها من نباتات ضارة.. أساليب رعاية التربة واستدامة عطائها توقفت وأطلت عوضا عنها زراعة التربة بالقوة الكيميائية وتكرار الدورات والنتيجة تملح التربة وهجرانها.

كانت البادية تترحل وتتنقل, حيث الكلأ والمطر, فيكون للغطاء النباتي فرص استجمام ليجدد ذاته.. وانقلب الحال, صار للبوادي صهاريج مياه متحركة، وشاحنات للقطعان, تجوب الفيافـــي.. وتسحق البادرات التي تطاولت أعناقها!

كانت القطعان جزءا من أهل الدار, يسمونها بأسمائهم ويأنسون بها ويستأنسون برعايتها.. يتخذون منها ركوبة ومنها يأكلون.. فإذا بالقطعان اليوم بالألوف تعسكر حيثما شاء راعيها الوافد.

ويغتال الغطاء النباتي تحت هذه الضغوط.وتتعرى الأرض من كسائها, وتنكشف عورتها.

تضاعفت المساحات الزراعية وبأحدث الأساليب, ليس فقط لسد فجوة غذائية محلية, بل تطلعا إلى التصدير.. استخدمنا تقنيات لا تتماشى مع البيئة المحلية...

وأعددنا الأرض للفلاحة..

وإعداد الأرض يعني إزالة الغطاء النباتي الأصيل..

وقد حدث.

بقدر ما اتسعت الرقعة المترعة, بقدر ما تضرر الغطاء النباتي الأصيل..

وأخضرت الأرض صناعيا, وجفت الأرض طبيعيا.. ونشطت الشركات الزراعية وشاعت تقنيات الزراعة الحديثة خاصة القمح...

وتم سحب المياه الجوفية بواسطة آليات الرش المحوري. وحصدنا القمح, وفقدنا الماء, ومن قبل فقدنا الغطاء النباتي الأصيل.

ثم جاء القرار الحاسم بوقف زراعة القمح إلا في المناطق الباردة ذات الموارد المائية الغزيرة (تبوك – الجوف – حائل).

ولم يأتي السؤال. ثم ماذا؟ كيف نعالج أضرار ما وقع على الغطاء النباتي بسبب هذا النشاط الزراعي المكثف كيف نعود إلى إحياء مناطق المدرجات الزراعية التقليدية التي حفظت سفوح جبال بلادنا؟!

يسعى العالم أجمع لحفظ الأصول الوراثية الفطرية من نبات وحيوان وكائنات دقيقة حتى وإن لم تكن مهددة.. وجاء القرن الحادي والعشرون يحمل بشائر هذا الاهتمام البشري العظيم بالكائنات الفطرية.. وتشابكت الأيدي وامتدت قنوات التعاون الدولية لإنشاء "البنوك الألفية لحفظ الأصول الوراثية", وتهدف إلى جمع كل البذور ووسائل التكاثر للنباتات البرية أينما وُجدت ومعالجتها بأساليب خاصة لمواجهة المستقبل المجهول. ولم نكن بعيدين عن هذا النشاط. غير أن بلادنا اشتهرت كذلك بمحاصيلها المحلية وفواكهها وخضرواتها وأعلافها وبالمعرفة التقليدية والممارسات التقليدية والحكمة والحنكة في التعامل مع هذه الموارد.. وكان علينا أن نعض عليها بالنواجز. ولكنا للأسف لم نفعل!

اندفعنا إلى الاستيراد والاستجلاب وأهملنا كنوزنا المحلية. وانزوت في خجل محاصيلنا التقليدية المحلية وجاء من المحاصيل الوافدة والبذور المحسنة ما حمل معه المرض والآفات وتطلب العلاج ومكافحة أوبائه ومعالجة متطلباته الاغتذائية, وجئنا بالأسمدة الكيميائية والمبيدات وتلوث كل شئ خاصة التربة والماء.

نحن أولى بأصولنا الوراثية.. ونحن أدرى بكيفية التعامل معها, وعلينا التوجه السريع نحو توثيق المعرفة التقليدية الأهلية بالكلمة والصوت والصورة.. ومن أفواه الأهالي .. قبل ضياعها إلى الأبد.

وغطاؤنا النباتي إلى جانب ثرائه المتوقع بالأصول الوراثية الزراعية بلا شك هو غني بالأنواع النباتية التي توظف في العلاج الشعبي, وفي الغذاء وفي الكساء وفي صنع بعض المعدات المترلية.. وهذا الجانب شديد الأهمية خاصة ماله علاقة بالعلاج والغذاء.. فالعالم اليوم يقف في مفترق الطرق بين الطب الحديث والطب الشعبي وخاصة التداوي بالأعشاب. وقد اهتمت جامعة الملك سعود / كلية الصيدلة بالتعاون مع مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية بهذا الجانب وتوثيقه, والمتوقع هو اختبار المفْعُول العلاجي لهذه النباتات والتوصل إلى استخدامات فاعله آمنة.

يعيش معنا فوق هذه الأرض المباركة ولا يوجد في أي موقع آخر في العالم من أنواع النبات ما هو متوطن Endemic ولنا منه ثروة يجب الاعتزاز بها, تتألف من 246 نوعا نباتيا لها صفة المواطنة الأصيلة.. اكتشفت خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين. ويحوطها الكثير من مخاطر حضارة اليوم وتهديداتها, مما وضع نصف هذا العدد في دائرة التهديد المباشر. فكيف نحميها؟ وكيف ننميها؟ وهل نعرف عنها كل شئ؟ وما هي خواصها؟ وما متطلباتها البيئية؟ وتتلاحق الأسئلة والأمر يحتاج إلى فريق متخصص يكفيه فقط أن ينظر في أمر هذه الأنواع, فهي أولى بالرعاية والحفظ.